

13/07/2015 كتاباتكم

## يوسف بحصاص : المسلمون بين الأزمات والحلول ...



السؤال الذي يمكن أن يفرض نفسه الآن , هل الإسلام قادر في تلك الظروف أن يقدم حلاً , للأزمات المتعددة والتي ذكرت أعلاه ؟ . وبصياغة أخرى , هل المبادئ والقيم الدينية من تشريع وشعائر .... قادرة على المسيرة مع الظروف المعاصرة , وما يأتي من الحضارة الغربية ؟

لا يمكن لنا أن نشارك بتعمير الكون إلا إذا اكتشفنا قوانينه بالنظر العقلي المجرد والحر , وبالتجربة العملية الدقيقة. ولكن للأسف كلما حاول أحدنا أن يتحدث عن مفاهيم معينة في هذا السياق , بدأ الناس بالتملل والانصراف عن القراءة أو التأمل .

ذلك أننا منذ عشرات السنين نتكلم فنطيل في الكلام , ونقول ونتشدد في القول , عن عظمة الإسلام وشموله وخلوده وكماله , وأنه الحل الذي لا حل غيره لمشاكل المسلمين وغير المسلمين ... ولكننا للأسف لا نتجاوز القول أو الكلام إلى العمل الذي يحرك الكون ويغير الواقع وفق ما نتفوه به لنقدم الدليل الصحيح على صحة ما نقول في حماس شديد وإصرار بالغ .

ونرى في الواقع أن كثيراً من المتحمسين والمتحدثين عن الإسلام , يصرون أن يتعاملوا مع من حولهم من الناس والمستمعين لهم , برؤيتهم هم , متمسكين بحق ترتيب الأولويات كما يرون , ومتصورين أنه بتلك الأولويات الجامدة البعيدة عن الواقع وعن مفهوم الفكر الإسلامي , بإمكانهم السيطرة على العالم , والتحكم به . ويبحث الناس في ما يطرحه هؤلاء عن حلول لمشاكلهم الحقيقية القائمة , فلا يجدون في طرحهم موضعاً ولا ذكراً ولا نهجاً , يتمكنون به , ليس من تغيير وجه العالم , ولكن على الأقل حلولاً لمشاكلهم . والأغرب من ذلك , أن الناس ترى شعارات أو حلولاً لمشاكل تنمو بأخذها تلك الحلول المقترحة . حتى أصبح ترديد عبارة " الإسلام غير المسلمين " من الأمور المألوفة , هروباً من تأثير النماذج الجامدة , التي لم تؤت أكلها عبر هذا الخطاب المتكرر. يُقال أنك كلما كنت جريئاً بطرح الواقع , كلما تمكنت من إيجاد الحلول للمشاكل المزمنة والطارئة فيه . دعونا إذن نتساءل



هل المسلمون الآن يعيشون أزمات كبيرة ؟ وهل تلك الأزمات تختص بهم ؟ هل تلك الأزمات تأتي أساساً لتبلي متغيرات دورة الحضارة ؟

أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج إلى التفكير , فأكثر المجتمعات الإسلامية متخلفة في أكثر المضامير ( اقتصادياً , علمياً , تكنولوجياً ... ) والرفاه الطارئ الذي تعيشه بعض المجتمعات الإسلامية , لم يأت نتيجة تطور تلك المضامير أو أحدها , بل كان بسبب وجود الذهب الأسود . أضف إلى ذلك أن معظم المجتمعات الإسلامية هي مجتمعات تابعة اقتصادياً , وتتسع فيها كل يوم الفجوة القائمة بينها وبين الدول المتقدمة . هذا عدا عن وجود غموض يزداد كل يوم في تحديد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وبين الدول نتيجة غياب أو تدهور المفهوم القيمي من خلال تلك العلاقات .

السؤال الذي يمكن أن يفرض نفسه الآن , هل الإسلام قادر في تلك الظروف أن يقدم حلاً , للأزمات المتعددة والتي ذكرت أعلاه ؟ . وبصياغة أخرى , هل المبادئ والقيم الدينية من تشريع وشعائر .... قادرة على المسيرة مع الظروف المعاصرة , وما يأتي من الحضارة الغربية ؟

لقد ألح الإسلام , بعكس ما يفكر الكثير من المسلمين , على إعمار الدنيا . وإذا عرف المسلمون أن الحل لكل أزماتهم هو هذا المدخل , وعرفوا شروط وأدوات هذا المفهوم , فإن مشاكلهم ستتأكل بسرعة كبيرة . لقد قرأت للدكتور المفكر فهيمي الهويدي مقالتي رأتين , الأولى كانت بعنوان ( تعمير الدنيا قبل تعمير الجنة ) والأخرى بعنوان ( تطبيع العلاقات بين المسلم ودنياه ) تحللتا بقدر كبير من مفهوم ومعنى العمل في الإسلام , والبناء في التشريع الإسلامي . فالأجيال يجب أن تكون متحمسة للبناء , ولا تستكين وتتغلق باعتبار أن الفوز بالآخرة هو المال والمقصد , وأن الزهد في تلك الدنيا الشريرة , يجعل الآخرة هي المطلب لكل مؤمن متعبد . إن هذا التفكير سينأى بالشباب بعيداً عن مقومات النهضة , حتى أن تلك المقومات تنهار قبل أن يبدأ البناء . إن الإسلام يحمل في جوهره لأدوات النهضة , والتي يمكن أن تتوافق وتتلاءم مع المعاصرة .

إن أولى تلك الأدوات تتمثل في إبراز الدور الإنساني للإسلام , بل دعوته لفهم التجارب الإنسانية , وهذا الأمر يتيح لنا أن نتبادل التجارب الحضارية مع الأمم الأخرى , بعيداً عن المظاهر المادية , والنزعات الفردية ( العنف , الإباحية عبادة الذات .... ) التي تشوب التسارع الكبير في التقدم العلمي . وهذا الأمر كفيل بأن يجعل المسلم يقتحم حلبات السباق الحضاري , ولو كان متأخراً , ويجعله متسابقاً داخل المضمار , بعد أن نأى بنفسه خارج تاريخ وعلوم الآخرين .

الأمر الآخر هو إعمال دور العقل والإلحاح عليه في عملية بناء النهضة , لتخلص نهائياً من مقولة " النقل لا العقل " والإسلام في أساسه لم يكن صانعاً لهضة المسلمين بل كان ناهضاً بهم , من أوكار الجهل قبله , إلى قمم المعرفة والعلم بعده .

الأمر الأخير والذي يكاد يكون الأكثر أهمية , هو الأخذ بعين الاعتبار الطرفين المكاني والزمني في ربط التشريعات بالمصلحة , وتغيير الفتوى باختلافهما , ولا أقصد هنا تلك الفتاوى المضحكة , والتي يتبارى بها اليوم المنصبين أنفسهم المدافعين عن الإسلام , مثل فتوى إرضاع الكبير , والخلوة بين الرجل في الفضائية والمرأة في البيت .... فتلك الفتاوى قاصرة ولا تنظر إلى الظروف الموضوعية . وإنما أقصد الفتاوى التي تلح على القيم الأولية والتي تنظف الذات الفردية من الفهم الخاطئ للدين . ويمكنني القول أن هناك حقائق كثيرة في التشريع الإسلامي ووصايا أتى بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم , يمكن أن تأخذ دورها الآن أكثر مما مضى , في ترسيخ العلاقات الإنسانية , ومسألة التسامح , وحرية الآخر وفهمه .... فالإسلام لديه كل مفاتيح الحلول لأزمات التخلف التي تمر بها المجتمعات الإسلامية , بل أيضاً التخفيف من أي آثار سلبية مترافقة مع النمو والتطور , والذي يراها البعض شر لا بد منه , يجب أن نتقبله إذا أردنا أن نواكب الركب الحضاري .

أعتقد أنه مع تلك الحالة يمكن أن يزول ذلك الإحساس بالخطر , والذي يجعلنا منغلقيين على ذواتنا خشية الغزو الثقافي , والذي يدفعنا باستمرار إلى إغلاق النوافذ في وجه كل الرياح الوافدة , على اعتبار أنها لا محالة ستقلعنا من جذورنا , والأسوأ من ذلك أنها تدفعنا باتجاه اجترار الماضي خوفاً من المستقبل . ترى هل يمكن أن نصارح ذاتنا ونسير بهذا الطريق رغم صعوبته ؟